القسم العمومي

بلرم - صقليه

٢

(المكتبة العمومية ، ودار المحفوظات)

أما المكتبة العمومية فقد جاءني من أوصي بصحبتي ويثقل عليّ ذكر اسمه لطوله فذهبت معه الى تلك المكتبة وهو أخو مديرها وله احترام في نفوس خدمتها وكان يعرف قليلا من اللغة الفرنسية فسألته أن يطلب لي فهرس الكتب العربية إن كانت فطلب ذلك فبدت حركة شديدة في الخدمة وكثر الداخل والخارج ، والذاهب والآئب ، ولغطت الالسن ، وارتفعت الأيدي بالإشارات ، وطال الزمن نحو ربع ساعة ، كل ذلك وأنا لاأفهم أسباب هـذا الاضطراب ، وآخر الامر جيء الي بدفتر صغير جداً يحتوي على نحو خمسين صفحة وكانت تلك الضوضاء للبحث عنـه وكل يتهم صاحبه بأنه هو الذي يعرف مقره والآخر يدافع عن نفسه تهمة معرفته ، ولم يعجبني عند تصفحه الا كثرة مافيه من كتب الأدعية والصلوات كأنه فهرس خزانة لشيخ من مشايخ الطريقة الخلوتية أو مكتبة السادات البكرية ، قدس الله أرواحهم جميعا وانما رأيت فيها قطعة من شرح ابن رشد على مدونة الامام مالك رضي الله عنه وكتابا في السيرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام الا أنه لايمكن قراءة سطر واحد من تلك السيرة لأن خطوطا قد جرت على السطور بعناية غريبة حتى عمت الحروف الاصلية وحجبت حقيقتها عن النظر مع سلامة الظاهر من التشويه فعجبت لذلك وسألت عن السبب فقيل لي ان قسيسا من أهـل القرن الثامن حمله التعصب على أن يأتي الى المكتبة ويطلب الكتاب بحجة انه يريد قراءته وكان يعرف العربية حق المعرفة فسلم اليه فصنع به ذلك حتى يصد الناس عن مطالعة مافيه ، وقد فعل مثل ذلك بمصحف من المصاحف وزور كتبا كثيرة أفسدها ، وقد انكشف للحكومة حاله فحوكم وصدر الحكم عليه بالحبس مدة عشر سنين في رواية ومدة خمس عشرة سنة في رواية أخرى ، أما القطعة من شرح ابن رشد فكانت سليمة وخطها مغربي جيد تسهل قراءته على طالب العلم

والكتاب الفرد الكامل الذي رأيته في المكتبة هو كتاب النخل لأبي حاتم السجستاني وهو صغير في نحو ستين ورقة بخط ضيق مضبوط صحيح . قرأت منه عدة صفحات ونقلت منه عدة فقرات في تفسير قوله تعالى « ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء ، تؤتي أكلها كل حين باذن ربها » الخ ، ومما قاله في ذلك قول أبي حاتم رحمه الله : ومما كرم الله به الاسلام وكرم به النخل أنه قدر جميع نخل الدنيا لأهل الاسلام فغلبوا عليه وعلى كل موضع فيه نخل وليس في بلاد الشرك منه شيء : فرحم الله أبا حاتم ما كان أبعده عن صحة الحكم في ملايين السودان وان كان من أفضل أهل البر وأجل علماء اللغة . والكتاب مفيد في اللغة وهو بخط مشرقي تاريخ نسخه شهر جمادى الآخرة سنة ٣٩٤ وقد بلغنا انه طبع في ألمانيا وكان الاجدر به ان يطبع في مصر ولعل ذلك يكون ان شاء الله متى ساوى المصريون أهل ألمانيا في اهتمامهم باللغة العربية وتفائسها .

***

ثم زرت دار محفوظات الدولة وهي مثل (الدفترخانة) عندنا الا انها تتبع أوراقها ولا دفاترها لا بالقنطار ولا بالارطال كما نعمل بالدفترخانة المصرية بل هي محفوظة على ما كانت عليه من عدة قرون لا يفرط في ورقة واحدة منها . وقد طبعت الدولة ما في الاوراق التاريخية المحررة باللسان العربي وغيره من الالسن الشرقية حتى يسهل على الناظر فيها معرفة ما كتب في تلك الاوراق ويتيسر له بعد ذلك قراءتها في أصولها خصوصا اذا كان غير متعود على قراءة الخطوط العربية المختلفة فاذا قابل بين المطبوع والمرقوم عرف صحة العبارة في النسختين . ولعل المكتبة المصرية الكبرى تصنع مثل ذلك في المخطوط المكتوبة على أوراق البردي وغيرها مما كتب بالكوفية أو النسخ القديم أو ما عتق عهده القدم لتتم فائدة حفظ هذه الاوراق والانتفاع بها ان شاء الله

من العادة في المكاتب ودور حفظ الاوراق ان يجعل لها دفاتر يكتب فيها الزائر اسمه ولقبه وتاريخ الزيارة وهي عادة حسنة تليق بأماكن أقيمت لحفظ الآثار العلمية والمذكرات التاريخية . أما عمال المكتبة العمومية في بلدنا فلم يعملوا بهذه العادة ولا كلفوا بتقديم ورقة من أول في طالب المطالعة لوضع امضائه عليها كما

فعل ذلك خدمة المكتبة العمومية في مدينا لكن عمل دار محفوظات الدولة راموا ان تجري تلك العادة مجراها فطلبوا ذلك الدفتر فلم يجدوه فجدوا في البحث والتنقيب وأخذت الاصوات تتقاذف ، والاشارات تغدو وتتزايد ، على نحو مافعل عمال المكتبة العمومية ، في اكتشاف فهرس الكتب العربية ، وكنت على عجل أريد زيارة محل آخر فحبست مدة حتى يسر الله ووجد الدفتر ووضعت إمضائي فيه ، وأظنهم حمدوا الله لأن كنت السبب في العثور عليه بعد ضياعه

هذا وذلك يدلانك على أحد أمرين إما قلة الزائرين لهذه الاماكن العامية من الاجانب وطلاب النظر في الآثار العربية وقلة الدارسين من أهل البلاد في تلك الكتب التي كتبت في لسان غير لسانهم اكتفاء بتراجمها أو لعدم الحاجة اليها ، واما شدة الاهمال من موظفي هذه الديار . وقد يتيسر لك الجمع بين الامرين ولم أعهد في مكتبة أوربية أن وقع لي مثل ماوقع في مكتبتي بلرم

﴿ حاجة السائح الى معرفة اللغات وأيها أنفع ﴾

ومن الامور التي لاأجد بداً من نقدها أن موظفي هاته المكاتب لايعرفون من اللغات الا الايطالية فلا يعرفون الفرنسية مع قربها من لغتهم ومن عرف منها بعض كلمات يصعب عليه ان يؤدي بها مراده . وكان رفيقي يترجم بيني وبينهم عند ما كان معي في المكتبة العمومية لكني بعد انصرافه وقعت في وحشة يزيدها لزوم الصمت وعدم الفائدة في الكلام وضيق الصدر عند ارادة الاستفهام عما يراد فهمه ولا يوجد السبيل اليه الا من طريق الاشارة . ولا يخفى عليك ان الاشارة انما تصلح للافادة والاستفادة من الاخرس اذا كنت واجدة له على مافي المثل ، أم الاخرس أعرف بلغته ، فلا بد من التعود على ضرب من الاشارة مخصوص حتى يتيسر الفهم والافهام ، ولهذا لم يمكني ان أستفيد شيئاً بما هنالك ان يصنع لاستساغتي من الكتب العربية كتلك القطعة من شرح ابن رشد مثلا . وبعد طول الكلام بفرنسية لايفهمونها وإيطالية لاأفهمها انصرفت وأنا من الجهل على مثل ماد خلت به لكن قد انكشفت عني غمة هذا الجهل بملاقاة من أمكنه فهم ماأقول وأمكنني فهم مايقول من أهل المدينة

يناسب فى هذا المحل ذكر ما يقال من أن الذي يعرف اللغة الفرنسية يسهل عليه السفر فى جميع بلاد أوربا ويتيسر له الفهم والافهام لانها لغة عامة لاتجد نزلا ولا مكانا يرغب فى زيارته الا وأنت تجد فيه من يكفيك حاجتك فيما تريد . وقد رأيت ان هذا القول اضمحلت صحته فى مكاتب بلرم ولم ألق ما يقوي صحته فى مكتبة مسينا والمكاتب من دار العلم التي يكثر فيها العارفون باللغات الاجنبية ولا ينبغي ان تخلو منهم لمس الحاجة اليهم . وقد بت ليلة فى لوندرا ونزلت فى أكبر نزل فيها يسمى (كبر اقوراوتيل) فيه مايزيد على ست مئة بيت للنوم ولم أجد فيه من يعرف الفرنسية الا خادمين أحدهما بواب والآخر من خدمة قاعة الطعام . أما خدمه أماكن النوم وغيرهم فلا يفهمون كلمة واحدة والحاجة اليهم أشد فان المطالب الخاصة جميعها منوطة بهم أو بهن . اذا طلبت ماء أو لبنا أو قهوة أو تهيئة حمام أو نقل متاع من مكان الى مكان أو تصحيح منكسر أو كسر صحيح لم تجد من تطالبه الا أولئك الذين لايعرفون كلمة من الفرنسية . غير أنهم لتعودهم فيما يظهر على كثرة ورود هذا النوع من الطرس صاروا أو صرن كوالدة الاخرس يسهل عليهم أو عليهن فهم الاشارات بدون اتعاب شديد لأعضاء المشيرين (أي الذين يتفاهمون بالاشارة لا الذين حازوا رتبة المشيرية العسكرية النمايسة) لكن لايخفى عليك ان من المطالب مالا تعبر عنه الاشارة فماذا تصنع اذا كنت أعلم العلماء بالفرنسية وعرض لك مثل هذا المطلب وليس عندك وقت يسع تعلم اللغة الانكليزية ؟ لايسعك الا الاقرار بأن ذلك القول الذي قالوا مبني على تجربة قاصرة لاتصلح ان تكون مقدمة من مقدمات البرهان المعدودة في فن المنطق

أزيدك شيئا فى هذا وهو انك اذا كنت لاتعرف لسان القوم الذين تنزل فيهم يجدونك طعمة أوهية من الله سيقت اليهم فهم يكلفونك من النفقات مايشاؤن ولا يجدون فى أنفسهم دافعا من الرأفة بك أو الرحمة لغربتك . ولا يمكنك ان تبحث مع تاهبك في موضوع نهبك ، لأنه لايفهم ماتقول . وأنت لاتفهم مايقول ، فيتمشى أمرك بدفع مارقم لك رغم أنفك . وغاية ما يمكنك فعله ان تتنفس الصعداء وتعز رأسك وتلوي عنقك علامة على غضبك ولكن هذا كله لايوفر عليك ماتقصه منك

الجهل باللسان

وفي ظني ان من أراد ان يسافر الى بلد لا يعرف لسانه فأولى له ان يتعلم من لسان ذلك البلد ما يكفيه للتعامل ومدة سنة قبل السفر تكفي لذلك وأجرة الاستاذ المعلم لا تصل الى نصف ما يخسره بركة الجهل باللسان

أستغفر الله من خطأ فيما قلت . اذا أراد السفر الى صقلية (سيسيليا) من بلاد ايطاليا فعليه ان يجد لمعرفة اللغة الايطالية حتى يتكلم بسرعة ويفهم بسرعة يسبق بها كلامه وفهمه كلام الايطاليين وفهمهم والا سأل الله العوض فيما يفقد من متاعه وما يؤخذ منه أجرة على ضياعه . عند وضع قدمه على ساحل صقلية يجتمع عليه الحمالون والمرشدون الضلون ويتجاذبون متاعه وثيابه كل يأخذ قطعة فان كان لا يعرف اللسان، كان ما كان مما لا يسعه الامكان ، فاذا سلم له متاعه من التحطيم أو الضياع ، أو أصابه من ذلك ما لم يفسد فيه الدفاع ، وجد أمامه جيشا من الطليين كل واحد يطالبه بقيمة عمله، وماهو ذلك العمل ؟ هو حمل قطعة من المتاع وكلفة قيلت غير مفهومة في هدايته الى المحل الذي وصل اليه، مع انه وصل برجليه، ومن طريق كل الناس يمشون فيه . ولا تنس انهم يجاذبونك أحشاءك حتى ان جميع أحشائك في خطر من مجاذبتهم اذا لم تكن حريصا عليها . فاذا كنت في حاجة الى السفر الى هذه البلاد والاقامة فيها مدة من الزمان لتبديل الهواء وترويح النفس بجمال المناظر خصوصا أيام الربيع فعليك ان تصرف سنتين في تعلم اللغة الايطالية وما تنفقه في التعلم أقل مما تخسر مع تعذر التفاهم

وجدت ان الذي يعرف الانكليزية أسعد حظا في فرنسا من يعرف الفرنسية في انكلترا فانك لا تجد نزلا في البلاد الفرنسية الا وفيه كثير من الخدم الذين يعرفون الانكليزية . سألت عن السبب في ذلك فقيل لي ان أهل فرنسا قلما يسيحون في بلاد انكلترا أما الانكليز الاميركيون فيملأون سهول فرنسا وجبالها ويدهشون بالذهب صفارها وكبارها . فاضطر الفرنسي الى ترويج الانكليزية في بلاده لتعجب الزائرين ، وليستكثر من الناثرين .

ويل لك اذا أقمت يوما أو يومين في نزل بعيدا من أكبر ما يقصد السائحون .

رب النزل يعرف بعض كلمات قليلة من الفرنسية يمكنه بها ان يفهمك أن أجرة محل النوم وحده بلا أكل ولا شرب عشرة فرنكات في الليلة ويمكنك أن تفهمه بأنك قبلت ذلك على شرط النظافة وتوفر الراحة وان كان لا يعمل من ذلك بما فهم منك وانما العمل على ما فهمت أنت منه

تنام عند الساعة العاشرة فلا يمر عليك نصف ساعة الا وقد أطار نومك صياح وجلبة ودوي حركات تذهب وتجيء خارج منامك فيضيق صدرك وتطلب الفرج ولا تجده فتفتح الباب وتقول كلاما كثيرا يفهم منه انك في شدة الضيق مما تسمع ولا سبيل الى النوم فيقال لك ما تفهم منه ان هؤلاء مسافرون جاؤا الى المحل من من جديد وماذا يصنع معهم ؟ فتطلب محلا آخر للنوم ويأخذون فراشك من محلك الأول الى محلك الثاني فتحمد الله على الهدو وإقبال الراحة ثم تلقي جسمك على الفراش وقبل النوم على عينيك بثقله ثم لا يمضي نصف ساعة الا وقد أخذت يداك تحك وجهك وعنقك واليسرى تحك اليمنى وأخرى تحك اليسرى ولا يزال الحك يزيد والحكوك يتألم حتى تنبه أعصاب الدماغ والعين ويصبح ذلك النوم الثقيل ، أخف من نفس الجميل ، فيطير عنك الى حيث تبحث عنه ولا تجده ولا يبقى لك الا الحك والحركة : وما هذا كله ؟ هذا هو القمل الذي روعك حركته ، وتقلقك حركته بل حركته ، بل تطير نومك رؤيته . فتطلب الخلاص وماذا تصنع ؟ مضت مدة من الليل تام فيها النائمون فتعود الى محلك الاول وقد نام الخادم فتعود الى غير فراشك أو تفرش لنفسك وهذا أفضل لك ، فاذا أصبحت حوسبت على شمعتين في مكان لم تعرف منه شيئا وعلى ديتين آخرين ، وكدت تحاسب على أجرة مخدعين ،

أظرف ما وقع لي مع خادم هذا النزل : طلبت منه ماء باردا فلم يفهم فأشرت الى فمي وملأت يدي صورة الماء فاذا هو يفتح الباب وينظر الي كأنه فهم اني أشرت بيدي الى أن الباب مغلق وبفمي الى فتحه لانه فتحة من فتحات بدني ، وبعد تعب أعضائي من الاشارة دلني من التكلم بالفرنسية قمت وبحثت عن كوب وأشرت به اليه ففهم أني أريد ماء لكن لم يفهم أني أريده باردا وما أشد التعب في تصوير الجليد له ! ، فذهب وجاء بالماء فطلبت منه تجديده فرفع في وجهي كرسيا طويلا اشتريته لاجلس عليه

في المركب ففزعت لذلك وظننت انه يريد رمي به ظنا منه أني شتمته غير ان ذلك سرّي عني عندما رأيته ينظر اليّ نظر الاحترام ويطلب مني بيده أين يضع الكرسي. فاستلقيت من الضحك وذهبت الى موضع الغسل وأشرت اليه ان يجدد الماء ففعل. أفلا يحملك ذلك على تعلم اللسان الايطالي اذا أردت السفر الى سيسيليا وان لا تصدق مايقال لك من ان معرفة الفرنسية تكفيك الحاجة في كل بلاد أوربا ؟

آثار عربية

(التقريظ)

(رباعيات أبي العلاء المعري)

أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان التنوخي المعري أشهر من أن يعرّف كان إمامًا في اللغة والادب وحكيما كبير العقل بعيد الفكر حرّ الميول ذهب بشعره في فلسفة الأفكار مذاهب لم يسبقه بها سابق ، ولم يلحقه عثلها لاحق . الا ان يكون عمر الخيام فانه جرى على آثاره ، في ايداع الشعر فلسفة أفكاره ، وقد عني الفرنج بنقل أشعار هذا الى لغاتهم وولعوا بها وصار له فيهم أنصار ومريدون ولكنهم لم يتعدوا بعد الى أشعار إمامه وقدوته فيما امتاز به وهو أبو العلاء المعري حتى انتدب من عهد قريب أحد أدباء سوريا الى نقل بعض شعره الى اللغة الانكليزية وطبعه في أمريكا وسماه (رباعيات أبي العلاء المعري محاكاة لكتاب ترجم الى تلك اللغة يسمى (رباعيات عمر الخيام)

ذلك الاديب هو أمين أفندي ريحاني نزيل أميركا أحد دعاة الوطنية وأعداء التعصب الذميم . وقد صدر الرباعيات بمقدمة يذكر فيها شيأ من شمائل أبي العلاء وفضائله وبعد فكره في فلسفة الدين والاجتماع وقد فضله على غيره من فلاسفة العرب حتى على الرئيس ابن سينا ولكنه أومأ الى انتقاد المسلمين باهمال شعره وعدم الاشادة بذكره ، وانا نقول ان أبا العلاء لم يكن مغمولا في زمنه ، ولا مهجورا في موطنه . وانما أخذ عنه بعض النابغين كأبي القاسم علي ابن المحسن التنوخي والخطيب أبي زكريا التبريزي بل كانوا يتبركون به كما يتبركون بالاولياء والصلحاء فقد قال